# مع المعجمات اللغوية القديمة ومسألة التصحيح اللغوي

أ. د. ابراهيم السامرائي(*)

## مقدمة

مازالت كلمة «المعجم» غير مألوفة لعامة المثقفين، فهم يؤثرون كلمة «قاموس» وربما لم يكن ذلك شيئا من ايثار بل ان الكثيرين ليجهلون «المعجم»، وهم القوا ما كثر سماعه وهو «القاموس». وحسبك ان تجد بين من يتردد «القاموس» في كلامه من هم من الصفوة من اعضاء المجامع القريبين من العربية، ولن تعدم ان تجد المختص بالعربية يؤثر هذه الكلمة.

وقد تقول : هل يعد خطأ ان تستبدل بالمعجم القاموس ؟ والجواب عن هذا انه خطأ اذا ورد هذا المولّد الجديد في مبحث لغوي، أو في كلام احد المختصين، ولكننا نغض الطرف عن ذلك ان قرأنا في الصحف مثلا ان «الاستراتيجية» تعني في القاموس السياسي كيت وكيت، أو أننا قرأنا أن مكتبة لبنان نشرت قاموسا في مصطلح علوم الفضاء، أو ـ ما يقرب من هذه الأحوال مما يشيع فيها استعمال «قاموس».

وقد شاعت كلمة «قاموس» في عصرنا بسبب من الترجمة في حيز النشر مما يغلب عليه الطابع التجاري، فذاعت هذه الكلمة وكتب لها السيرورة فكانت أوفى في الاستعمال العام من كلمة معجم التي لم يكن لها تصور واضح في اذهان المعربين.

ولا بدّ لي أن ألم بشيْ يسير من تاريخ هذه الكلمة فأقول :

ان المعجم وثيق الصلة بـ «الاعجام»[1] والاعجام مصطلح لغوي تاريخي ويفيد بل ويشير إلى طائفة من الاصوات العربية ميّزوها عن غيرها فكان في الأول نقطة أو نقطتان أو ثلاث فوق الحرف أو تحته علامة مميزة عن طائفة أخرى عريت عن النقاط، وكان عُريْها «إهمالا» فالاهمال مصطلح آخر نقيض الاعجام.

---

(*) كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية.

(١) وأصل «الاعجام» دفع العجمة، وكأن هذه الطريقة القائمة على النقاط تدفع العجلة التي هي الخطأ، وعلى هذا كانت همزة «أعجم» للسلب نظير رعد وأرعد ووعد وأوعد ومثل هذا كثير.

وكأن الحرف بهذه العلامة وهي النقطة سُمّي «معجمًا» وهكذا تمّ بـ «الإعجام» التمييز بين الاصوات الذي دفع وأبعد غائلة ما سمي بـ «التصحيف» الذي هو الخطأ في أصله مما كان من تشابه الرسم وكأن «الكتاب» الذي ضم هذا الكلم كله مجموعًا مميّزًا بعضه عن بعض بـ «الاعجام» سُمّيَ «معجمًا».

قلت : لقد غلب استعمال «القاموس» فشاع شيوعا كاد ان يكون شيئا غير «المعجم».

ومن المفيد ان اشير ان «القاموس» هو وسط البحر. وقد أولع العرب بالبحر ورأوا فيه ما رأوا مما كان في العربية من استعمال على جهة المجاز، فهو واسع صخاب ذو عباب وموج متلاطم، وإذا كان واسعًا فقد نعت به الرجل الكريم والعالم الكبير لما في هذا وذاك من السعة في الكرم والعلم. وبسبب من هذا سمّوا طائفة من كتبهم بصفات البحر فقالوا : البحر المحيط وهو من كتب التفسير الجليلة وصاحبه أبو حيان، وقالوا : المحيط الاعظم كما قالوا : «القاموس المحيط»، وصاحبه مجد الدين الفيروز آبادي، وقالوا : العباب، وهو المعجم الكبير الذي صنفه الصاغاني ولم يتمّه.

والمحيط من صفات البحر الكبير، وليس بعيدا عنا اننا نستعمل المحيط في الجغرافية الحديثة للبحر الكبير الواسع فنقول المحيط الهادي والمحيط الهندي والمحيط الاطلسي، ولم يعرف «الجغرافيون» العرب البلدانيون وغيرهم هذا المصطلح.

ولنأت إلى معجمنا القديم لنتبين فيه العنصر الحضاري، لنخلص من ذلك إلى ما ينبغي ان يكون لنا في «المعجم الجديد». وإذا كان المعجم القديم وعاءً للعربية في جاهليتها واسلامها فهذا يعني انها شملت ألوان البداوة الممثلة في نصوص الشعر الجاهلي، ونماذج الحضارة فيه.

واذا كان المعجم قد استجاب للبداوة الجاهلية وما كان من نماذج الحضارة في جوانب اخرى من المجتمع الجاهلي القديم فهو مرآة صادقة نبصر فيها المجتمع القديم ببدوه وحضره. وقد قيل : ان الشعر ديوان العرب، وهي مقولة كانوا يقصدون فيها الشعر الجاهلي، غير اني اقول ان المعجم القديم أدلّ على معرفة أحوال العرب في جاهليتهم واسلامهم من الشعر الذي دخله من الصنعة والتصنع والافتعال ما دخله.

وليس من حاجة بنا أن نتبين البداوة في المعجم القديم ذلك أن ما يتصل بـ «الصحراء» ارضها وسمائها وسحابها ومطرها وما يدرج عليها من طير وحيوان وكل دابة، وما ينبت فيها من نبات وشجر، كل ذلك يشير إلى بداوة لها خصائصها وصفاتها التامة. غير أننا معنيّون بالوقوف على ألوان الحضارة وذلك يؤدي بنا إلى غرضين : الأول استجابة العربية لمظاهر الحضارة، والثاني الردّ على من ذهب إلى القول بالبداوة التي طبع بها الأدب القديم، وهذه المقولة قد شاعت ووجدت من يرددها وكأنه ينفي أن تكون في البيئة الجاهلية ألوان حضارية.

وإذا كان لنا ان نستقري العربية الجاهلية في المعجم القديم مستعينين بالنماذج الادبية نقف على مواد هي الحضارة في أصولها، وهي إلى يومنا هذا من لوازم الحضارة. اننا نجد : الكتابة، والكتاب، والصحيفة، والقلم، والدواة. وإذا كان هذا من لوازم الحياة العقلية الحضرية، فاننا لنقف على مواد أخرى هي من لوازم الحضارة المادية تتصل بالحُلي والعطور وأدوات الزينة وأدوات المنزل.

وقد يكون من المفيد أن أقف على انجاز عظيم قام به العالم الاندلسي الشهير بـ «ابن سيدة»، فقد صنف هذا اللغوي الكبير «المحكم» وهو معجم لغوي درج فيه على طريقة كتاب «العين» للخليل بن أحمد وذلك بضبط مواد اللغة في نظام مخارج الاصوات التي بدئت بحرف العين، وهو نظام معروف ابتدعه الخليل ونهج من بعده ابن سيدة في «المحكم» والازهري في «التهذيب»، وابي علي القالي في «البارع».

وكأنّ ابن سيدة في المحكم اراد أن يجمع متن اللغة في موادها واشتقاقاتها وابنيتها، وعمله هذا يبرز طاقة العربية في ثرائها وحكمتها وإجادتها في ضبط الابنية الكثيرة للمعاني الكثيرة. وكأنه أدرك أن العربية كما كانت لغة احتفظت بالأصول البدوية كانت لغة حضارة ووسعت الكثير من الألوان الحضارية، ومن أجل صنع كتابه الشهير بل معجمه الفرد الذي هو «المخصص» ليبرز هذه الناحية الحضارية.

وقد تتبين هذه الناحية الحضارية في أبوابه الكثيرة التي سمّاها «أسفارا» فاذا عرض لمادة «البيت» حبّس هذه المادة على الحجرة وما تشتمل عليه من أثاث ورياش ونحو ذلك. وأنت تجده مثلًا قد اهتم بحاجات المرأة، وهذه الحاجات بعيدة كل البعد عن الطابع البدوي فهي شيء من ملابس المرأة وما تستخدمه من العطور وأدوات الزينة ونحو ذلك.

ومثل هذا كثير من نماذج الحضارة التي اشتمل عليها هذا المعجم الكبير.

لقد سجل المعجم القديم المادة اللغوية التي تشير الى العقائد الدينية، فأنت تجد في مادة «ألل» و «أله» أصولًا للتفكير الديني في وثنيته وحنيفيته.

واني لاقرأ في المعجم القديم قول امرئ القيس :

| | |
|---|---|
| حلّت لي الخمر وكنتُ امـــرءًا | عن شربهـــــا في شُغُلٍ شاغل |
| فاليـوم أسقـى غيـر مستحـــقب | إثمـــــــا من الله ولا واغل |

وفي هذين البيتين جاء قوله «حلّت لي الخمر» وهذا يشير إلى أنه لما قتلت بنو أسد أباه حرّم على نفسه الخمر حتى يقتل قتلة أبيه، فلما غازهم وقتلهم حلّت له الخمر.

وقوله : «غير مستحقب إثما من الله» أي غير مكتسبه ولا محتمله فيقول : انه يشرب الخمر وقد حلت له فلا يأثم ويكرّم نفسه عن ان يشرب الوغل.

أقول : قد يفصح هذان البيتان عن عادة الثأر الذي التزم به الشاعر، وهو من غير شك خُلُق تمليه حياة بدوية وسلوك بدويّ. غير ان في حواشي هذه الصورة البدوية مفاهيم حضرية عن الايمان بالله، وعقيدة تذهب إلى الكشف عن اقتراف الاثم، وأدب في طريقة شرب الخمر، وهذه الأشتات تؤلف مادة حضارية كشف عنه أدب قديم ولغة قديمة لم تقتصر على مواد البداوة.

واذا كان في الأدب القديم اشارات واضحة لأفكار ابعد ما تكون عن البداوة، فان ذلك ليعني ان في هذه العربية الجاهلية القديمة من الكلم المعبر عن مفاهيم الحضارة الشيء،ومن ثم كان المعجم القديم حيّزًا تجد فيه المفردة الحضارية إلى جنب نظيرتها المفردة البدوية. لقد وجدنا الحلف بالله كثيرا في الأدب القديم واني لأجتزئ بقول عبيد بن الأبرص :

حلـــفتُ بالله إن الله ذو نعـــم  لمن يشاء وذ عفو وتصفـــاح

وأنت اذا استقريت مواد الحضارة في المعجم القديم وقفت على ضروب من ألوان الوشي والنسيج الملون، وكنا قد أشرنا الى صنيع ابن سيدة في هذا في «المخصص».

ولا تحسبن ان العربي الجاهلي القديم قد اقتصر في معرفته وسلوكه ومعيشته على الناقة يتنقل عليها ويفيد منها، فانك لتستقري في المعجم القديم على طائفة غير قليلة من أسماء السفن والمراكب وما تنقل من مواد وحاجات، والاشارات الى الدمى من المرمر وحلي الذهب والياقوت والفضة كثيرة.

والاشارات الى الزجاج والقوارير كثيرة، ومثلها ما يتصل بالجلد وما يصنع منه[1].

ونأتي الى العربية وقد أشرق الاسلام بنوره وشمل عامة العرب وتجاوزهم الى غيرهم من الأمم، واذا عرفنا ان مادة هذا الاسلام الجديد في عقيدته وأفكاره وما يتصل به من أشتات تضبط الفرد في سلوكه مع التزامه بعقيدة جديدة هي علاقة المخلوق بخالقه وما يتأتى عن ذلك من معارف كثيرة، اقول : اذا عرفنا كل ذلك أدركنا قيمة العربية في هذه الحضارة الجديدة التي تغرس أصولها في قواعد الدين الجديد الذي أقره الخالق العظيم في قرآنه وبلّغه الرسول الأمين.

وأنت إذا استوفيت الالفاظ الاسلامية متعقبا لها في «المعجم القديم» امكنك استخلاص مادة لمعجم خاص يحوي ضروبا من الكلم الجديد الذي جاء به الاسلام، وهذا الكلم الجديد يفصح عن ثقافة عقلية إسلامية فالاركان الخمسة في الاسلام وهي الصلاة والصوم والزكاة ... من الكلم الحضاري الجديد الذي استقرت أصوله، وكان له من العربية أدوات معبرة وفت بما يتطلّب منها في أداء الفكر الجديد.

---

(١) كنت قد استوفيت هذا الباب في كتاب لي وسمته بـ «اللغة والحضارة» طبع في بيروت : المؤسسة الثقافية للنشر».

وأنت تستطيع ان تتعقب الالفاظ الاسلامية التي كثرت وزادت طوال العصور المتلاحقة.

هذه مقدمة أخلص منها إلى ما يجب أن يكون عليه «المعجم الجديد».

**المعجم الجديد :**

لعل المرء يتساءل، اين المعجم الجديد، وهل أنجزنا معجمًا جديدًا ؟

أريد بـ «المعجم الجديد» معجم للعربية الجديدة كما نكتبها ونسمعها، نكتبها في كتب الأدب والعلوم المختلفة والمجلات والصحف، ونسمعها في الندوات والاذاعات وما يسمى بـ «التلفاز أو التلفزة».

وهذا يجعلنا واقفين وقفة خاصة وهل نسجل ما يُكتب أو يُسمَع، وفيه ما فيه ؟

والجواب عن هذا : نعم.

ولعل الحاجة تدعو إلى ان نعرض لنظر الأقدمين للافصح والفصيح والخطأ.

اتبع علماء اللغة منهجًا صارمًا في أخذ الكلم فقد خصوا قبائل بالاخذ دون أخرى فلم يأخذوا ممن كانوا في أطراف بلاد العرب فالذين كانوا في الجهات الشرقية افترضوا فيهم عدم الفصاحة لقربهم من فارس كما لم يأخذوا ممن كانت مواطنهم قريبة من بلاد الروم. واقتصروا في أخذهم بشواهد الشعر القديم جاهليّه واسلاميّه ولكنهم لم يتوسعوا في الأخذ من الاسلاميين، وهذا كله معروف للمعنيين بالرواية والاستشهاد.

وقد جاء في كتب الأدب القديم أن الأصمعي لم يرتض ان يقال «زوجة» ويزعم أنها مولّدة وغير فصيحة تمسكًا بقوله تعالى : «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» ٣٥ سورة البقرة.

وقوله تعالى : «أمسك عليك زوجك» ٢٧ سورة الاحزاب.

فقيل له : وذو الرمة يقول :

اذو زوجة بالمصرْ أم ذو خصومة  أراك لها بالبصرة اليوم ثاويا

فقال : ذو الرمة ليس بحجة اذ طالما أكل البقل والمالح في حوانيت البقالين[1].

(١) ان اهتمامهم بعربية البوادي التي لم يختلط اهلها بغير العرب بأي لون من الألوان، جعلهم يقصدون هذه البوادي ويستنطقون أهلها ويستملونهم، فكان ذلك إشعارا لأهل البوادي ان عندهم بضاعة، وهي بضاعة يسعى إليها هؤلاء المجتهدون من سكان الحواضر، ولعل ذلك اغرى هؤلاء البدو ان يتكثروا ويتزيدوا ويضعوا شيئا لم يعرفه عامة من يسكن تلك البوادي. وقد فعل شيئا من هذا علماء اللغة انفسهم، وحسبك ان تعرف ان مواد كثيرة انفرد بها ابن دريد فكانت من «مناكيره» ومواد أخرى انفرد بها اللحياني وغيرهما.

وهذا يعني أنهم كانوا يتحرّون الصواب متخذين من أهل البوادي مصادر يأخذون عنهم الكلمة العربية التي عرفتها مواطنهم، وعلى هذا لا يطمئنون الى ما يدرج به سكان الحواضر، قال القطامي :

ومن تكن الحضارة اعجبته فأيّ رجال باديةٍ ترانا

ومن اجل ذلك احبّو «الغريب» ونقبوا عنه وسعوا إليه، كما احبّوا «النوادر»، و «النوادر» ضرب آخر من الغريب الذي لا تعرفه الا خاصة الخاصة، وفيه ما فيه من الفوائد الغريبة. وقد تعجب ان ترى أنهم أعجبوا بهذا العلم الدقيق الذي هو غريب ونوادر فصنفوا في كليهما فكانت لغةً وكان أدبًا.

ومن يدري، لعل شيئا كثيرًا من الكلم قد صنع ولم يكن مما يعرفه العرب لا في بواديهم ولا حواضرهم، وإلى هذا اشار الخليل بن احمد : هذا ما صنعه النحاريز، وهؤلاء النحاريز هم طائفة من علماء اللغة.

ولا استطيع ان اصدق كل ما وصفه ابن دريد بأنه «يمني» أو من لغة اليمن وآخذه على انه حقيقة، فإذا كان ذلك من لغات اليمن وهو كثير فهلا عرف في كتب أهل اليمن كالاكليل والدامغة وغيرهما ؟ واذا كان ابن دريد من البلاد القريبة من اليمن وهي سواحل الخليج أو البحر العربي أو عُمان المعاصرة فلم اختص ولم يشر إليها من سبقه ممن كانوا من أهل تلك البلاد كالخليل بن أحمد مثلا ؟

ونتجاوز هذه الحقبة ثم نجد اللغويين بعدهم قد ساروا على الدرب وتشبثوا بالفصيح حتى غلوا وتعسفوا كثيرا وهذا هو الحريري في «درة الغواص» ينكر طائفة كبيرة من الألفاظ، وقد كان شيْ منها في الشعر الجاهلي وشيء في الحديث الشريف.

واذا كان هؤلاء المتقدمون قد أخلّوا في استقرائهم للكلمة فحملوا على الخطأ طائفة من الألفاظ بحجة ان العرب ما قالت «حوائج» جمع «حاجة» ثم نبين ان ما نبّهوا على عدم وجوده شيْ من كلام العرب يؤيده شعر كثير ونثر كثير، أقول اذا كان ذلك فهل يحق لأهل هذا العصر ان يسلكوا هذا الطريق فيزعموا ان هذه الكلمة خطأ، وهذا الاستعمال لم يكن من كلام العرب. من غير شك ان المعاصرين لا يحق لهم ان يقولوا ان هذا الاستعمال خطأ، وان هذا البناء لا تعرفه العربية وذلك لأن استقراءهم للعربية أبعد ما يكون عن النمط الوافي الكافي وأنكر ان جماعة من هؤلاء قالوا وكتبوا في «مجلة لغة العرب» التي كان الكرملي يصدرها في مطلع هذا القرن، ان بناء «مفاعيل» جمعًا لـ «مفعول» لم يردعن العرب، وعلى قولهم يكون من الخطأ ان نقول : «مواضيع» جمع «موضوع»، وقد دل الاستقراء على وجود عشرات من الكلم مما ورد على هذا الجمع.

ولنعد إلى المعجم القديم فنقول ان المعجم القديم على غناه وشموله للعربية القديمة وقدر كبير من العربية الاسلامية فاننا لنجد انه افتقر إلى اشياء كثيرة مما جدّ في «العربية العباسية». وأريد بالعربية العباسية ألفاظا عربية وردت في نثر الكتاب الكبار الذين عاشوا في عصور هذه الدولة، وهذه الألفاظ التي جدّت مما يمكن ان تحمل على ان الكتاب قد ساروا فيها إلى شيء جديد لم يكن لها في العربية القديمة، واما ان تكون شيئا من أبنية جديدة لا تعرفها العربية.

ولنعرض لشيء من أدب الجاحظ في جملة كتبه ورسائله فنقف فيها على ما كان لأبي عثمان من جديد يتصل بالفهم أو البناء أو المجاز أوشيء نحو هذا، أو مما يمكن أن يكون كلمًا أعجميًا وشاء الجاحظ أن يدخله في جملة الكلم العربي لشيوعه وذيوعه، وفي هذا كله استدراك لما فات أهل المعجمات القديمة.

قال الجاحظ :

لم يفلح بعدها أبدًا (الحيوان ٤/١١٥).

تعليق :

أقول : إن كلمة «أبدًا» في هذه الجملة تشير الى الظرفية الزمانية، ومن أجل هذا انتصبت انتصاب الظروف الأخرى. ومن المفيد ان نعود الى الكلمة لندرك دلالتها وطرائق استعمالها.

لقد جاء في المعجم القديم ان «الأبد» هو الدهر، والجمع آباد وأبود، ولقد تصرفت العربية في هذه الكلمة فكان منها طائفة من المواد تؤلف مجموعة خاصة يربط بين أجزائها الأصل الواحد. ومن هذه الكلمة أسماء وأفعال عدة انصرفت إلى استعمالات خاصة. ومن المفيد أيضا ان نقف على الاستعمالات الظرفية لنتخذ منها شواهد تؤدي بنا إلى جملة فوائد. جاء في «لسان العرب» :

وفي حديث الحج قال سراقة بن مالك : أرأيت متعتنا هذه ألعامنا أم للأبد ؟ فقال : بل هي للأبد، وفي رواية : ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فقال : لا بد أبد، وفي أخرى : بل لأبد الأبد، أي هي لآخر الدهر.

أقول : تنصرف كلمة الأبد في حديث سراقة الى الظرف العام وإلى الدلالة على المستقبل الخاص. ومن أجل ذلك كان علينا ان نقول مثلا «لا ألقاك بعدها أبدًا» كأننا نريد أن نقول : «لن ألقاك» في بعض الدلالة على المستقبل لا التأبيد. وعلى هذا كان الصحيح في نفي الزمن الماضي ان نقول : «لم أفلح قط» أو : «ما افلحت قطّ».

ونعود الى الجاحظ فنقول : أنحمل كلامه على الخطأ ؟ أم على إساءة ما فرّط فيه النسّاخ، وان الصواب ربما كان في الأصل : لن نُفلح بعدها أبدًا ؟ ولم يفطن المحققون إلى هذا العبث الذي يحمل على تفريط الناسخ.

أم نقول : ان الاتساع في معنى الظرفية جرّ إلى هذا ؟ وأن «الأبد» الذي يدل على كل الأزمنة قد سوّغ هذا الاستعمال ؟

أقول : لعل شيئًا من ذلك دفع الجاحظ في سليقته الفصيحة ان يقول ما قال، وإلا كان في طوقه ان يعدل إلى أسلوب آخر فيقول : «لم يفلح بعدها قط».

ثم ألم يدل «الأبد» على الزمن الماضي في المثل القديم «طال الأبد على لُبَد» ...

أقول : ان الاستعمال الجاحظي قد ورثناه في العربية المعاصرة. وعلى هذا فمن الواجب ان يشير المعجم القديم على هذه الدقائق فيستدرك ما يجب ألّا يفوت.

وأقول : وقد يصح أن يكون ما استعمله الجاحظ مما يجب ان يستدرك به على المعجمات القديمة، ومن هذا ما ورد في أدبه من بعض «الأبنية» التي قد تكون مما تفرّد فيه. ومن ذلك جمعه «تأريخ» على «تاريخات» ولم يكن هذا إرادة القلة التي ينصرف إليها الجمع بالألف والتاء غالبًا.

قال الجاحظ :

... وانك فُتَّ التاريخات (التربيع والتدوير ص ٢٥).

ومثل هذا قوله : في (العثمانية ص ٦) :

« ... وهذه التاريخات والاعمار معروفة لا يستطيع أحد جهلها».

أقول : ولم يقف أصحاب المعجمات على هذا وما كان شيء منه في معجماتهم.

وللجاحظ في أبنية الجمع نظر خاص فقد يكون من خير من سجل ما يتصل بالدارج من فصيح العربية في بيئته البصرية أو قل بيئة عامة ما يصطلح عليه في عصرنا بـ «أقطار الخليج العربي».

وأريد بهذا التزام الجاحظ بجمع «أفعَل» الصفة الذي مؤنثه «فعلاء» على «فُعْلان» نحو : أحمر حُمران، وأسود سودان، وأشقر شُقران، وأعمى عُميان، وأبكم بُكمان، وأصمّ صُمّان، وأعرج عُرجان، وأبرص بُرْصان، وأقرع قُرعان، وآدر أُدران، ومثل هذا كثير نجده في كتابه «البرصان والعرجان» كما نجده في سائر كتبه.

أقول : لم يستعمل في كتبه هذه البناء الاخر وهو «فُعْل» فلم يقل : سُود ولا شُقر، ولا عُرْج، ولا عُمْي ولا صُمّ، ولا بُكْم.

مع أن لغة التنزيل في هذه الكلمات استعملت «فُعْل» ولم تستعمل «فُعْلان» إلا مرة واحدة هي «عُميان» مع وجود «العُمْي» التي وردت مرات عدّة وإليك شيءمن ذلك :

قال تعالى : «صُمٌّ بُكْم عُمْي فهم لا يرجعون» ١٨ سورة البقرة.

وقد وردت «العُمْي» في سبع آيات.

أما «العُمْيان» فهي في قوله تعالى : «والذين اذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صُمًّا وعُميانًا» ٧٣ سورة الفرقان، ولم يرد شيءفي لغة القرآن من «الصُمّان والبُكْمان» ونحوهما.

أقول : كأن الجاحظ قد قصد الى هذا واراد ان ينبه أهل اللغة الى جواز هذا الذي تنكّر له الكتّاب وقد حاول الجاحظ ان يسجل المعروف المألوف في عصره مما يمكن أن يكون من الدخيل، وكأنه في تسجيله لهذه الأنماط من الكلم الدخيل أراد أن يستدرك على أصحاب «المعرّب» القديم موادّ لم يعرضوا لها.

ومن هذا قوله :

وما كان من إشكنّك (كذا) فهو مجموع للبناء (البخلاء ص ١٤٣).

تعليق :

أقول : ان كلمة (إشكنّك) من الكلم الغريب التي لا يعرفها غير العراقيين من القاطنين في الوسط أو الجنوب. قلت انها من الكلم الغريب لأنهاشيءلا يعرفها اهل المعرّبات. ولعلها من الكلم الدخيل الذي عبّر عنه المؤرخون الاقدمون بالكلم «السواديّ» أي المنسوب إلى «السواد» والسواد معروف وهو عامة الأرض إلى الجنوب من بغداد إلى البصرة مرورا بـ «واسط» وسميّت «السواد» لكثرة المزروع فيها وقديما عبروا عن الخضرة الشديدة بـ «السواد».

والكلمة «السوادية» ارادوا بها الكلمة التي جاءت من أصل آرامي سرياني، وهذا يعني ان هؤلاء السواديون العاملون في الأرض كانوا من الآراميين ثم أضيف إليهم عامة العاملين من الفرس وغيرهم من الافارقة السود وهم الزنج الذين كانوا يعملون في كسح السباخ.

ولنعد إلى «إشكنّك» التي وردت في كلام الجاحظ فنقول : انها تعني الحجارة التي يحشى بها الحائط بين صفي الحجارة المنظمة من جهتي الحائط، وذلك يعني ان الفراغ بين الجهتين يملأ بهذه الحجارة المكسرة وغير المنظمة، وهو ما يقال عنه بـ «الدبش» في بلاد الشام.

أقول : وقد أدركنا هذه الكلمة في عصرنا هذا ولكنها بدأت تزول لزوال الحاجة إليها في نمط البناء الجديد.

ومن هذا الدخيل استعماله «الآيين» :

قال :

الآيين فيما نحن فيه ان تكون اذا كنتُ أنا الجالس، وأنت المار ان تبدأ أنت فتسلّمَ (البخلاء ص ٢٥).

ولابن المقفع كتاب في الآيين نقل عنه ابن قتيبة في «عيون الاخبار» وذكره ابن النديم.

أقول : والآيين بمعنى النظام المتبع أو القانون أو ما يسمى باللغات الأعجمية بروتوكول Protocole لقد استعمله الجاحظ غير مرة في كتبه ورسائله، وهو من الكلم الذي لم تشر إليه كتب «المعرّب» وكأنه أراد ان يستدرك به على ما فات أهل «المعجم» من هذه المواد.

ومن هذه المعرّبات الشيء الكثير في كتب الجاحظ وكله من الكلم الحضاري مما يتصل بالمعنويات والماديات، وأجتزئ بهذا القدر لأن ما أريد أن أعرض له كثير، ولكني أشير إلى كتاب «البخلاء» الذي اشتمل على قدر من هذه المعربات ولا سيما ما دل على أدوات الحضارة[١].

ومن المفيد ان اشير إلى أن الجاحظ قد استعمل طائفة من الكلم مما يستعمله أهل الفلاحة ومن هذا ما كان من أصل آرامي كالتبليا، وهي أداة يستخدمها العاملون في النخيل في الصعود على النخلة، وهي «البَرْبَنْد» أيضاً في لغة المعجم، وكلاهما من المعروف في لغة البصريين، ومازلتا معروفتين في عصرنا.

وقد أشار «فرنكل» إلى هذا (انظر Z.D.M.G., 1906, 360).

ولنعرض لشيء آخر من أدب الجاحظ وهو وضعه للكلم الجديد الذي لا نجده لدى غيره من الكتاب، ومن ذلك قوله :

الجِرار عُود يُعرَض في فم الفصيل، أو يشقّ به لسانه لئلا يرضع (البيان والتبيين ٢٤١/١).

تعليق :

لقد علق الجاحظ على كلمة «أجرَّت» في بيت عمرو بن معد يكرب :

فلو ان قومي انطقتني رماحهم    نطقتُ ولكنّ الرماحَ أجَـرَّتِ

---

(١) انظر كتابي من «معجم الجاحظ».

أقول :

لم أجد «الجرار» بهذا المعنى أي «عُود» في جميع المعجمات.

ولكني وقعت على الشاهد في مادة «جرر» في «اللسان» وغيره و «أجَرّ» في «اللسان» أن يُشقّ لسان الفصيل لئلّا يرضع، وعلى هذا يكون الجاحظ قد تفرد بذكر «الجِرار» كما شرحه في «البيان» والذي في المعجمات لهذه الدلالة «الخِلال» وخلّلتُ لسان الفصيل وضعت له الخلال.

وهذا مما يستدرك به على المعجم القديم ليشار الى الطريقة التي أفاد منها الشاعر فنقل «الجِرار» إلى فائدة معنوية.

وقد أحصيتُ من هذه الالفاظ التي ذكرها الجاحظ وخلت منها المعجمات ما يقرب من خمسين كلمة.

ولعل من المفيد أن أعرض بشيء اختم به هذا الذي ذكرته من أدب الجاحظ وهو ما ورد في قوله :

«ولولا الذي أكتبه مجانب لطرق الهيثم وخارج ما يشتهيه «الريّض» المتكلّف الملول» (البرصان والعرجان ص ٦ ـ ١٧) طبعة الخولي.

و «الريّض» من الدوابّ والابل ضد الذلول، وناقة ريُض أول ما ريضت وهي صعبة بعد.

أقول : لقد تجاوز الجاحظ اختصاص «الريّض» بالدوابّ والابل إلى الانسان، فكأنه أراد بـ «الريّض» في كلامه الصعب المراس، وهذا من غير شك مما اتّسع فيه.

وعلى كلام الجاحظ هذا نستطيع فهم «الريّض» في العربية المعاصرة.

وكنت أشرت إلى «العربية العباسية» التي أود أن أقول فيها شيئا وهو انها قبلت أشياء كثيرة من الدخيل، وفي هذه العربية ربما اختلط الفصيح بالكثير من الألوان العامية الدارجة، وكان على المعجم ان يسجل هذا الذي أورده الكتّاب في أدبهم.

ولنبدأ بكتاب «الهفوات النادرة»[1] لأبي الحسن محمد بن هلال الصابئ المعروف بغرس النعمة ...

ونقرأ فيه في الصفحة السابعة عشرة قوله :

وجعل (أي الخليفة) سريره في الايوان المنقوش بالفسافا (كذا).

والمراد به ما نجده لدى المتأخرين وهو الفسيفساء ...

(١) من منشورات مجمع اللغة العربية في دمشق.

وقد يكون من هذا الجديد قوله في الصفحة ٢٠ :

وكان بالبصرة مغنية تسمى فضلة ... وجذرها خمسة دنانير في كل ليلة :

أقول : و «الجذر» أجرة المغني وهو دخيل، ذكره الثعالبي في «فقه اللغة» ص ٣٢١ (طبعة مصطفى السقا).

وقال التنوخي في الصفحة ٢١ :

وحُملتْ إلى طِرْز عظيم في صدره دسْت .

أقول : و «الطرز» إيوان كبير، ومازالت الكلمة معروفة في العامية السورية وأما «الدست» فهو الموضع المهيأ لجلوس الخليفة أو الأمير في صدر الديوان، وهو من الدخيل المعرّب. على ان «الدست» قد ورد ثانية واريد به غير المعنى المذكور كما في قوله في الصفحة ٥٨ :

... ان عضد الدولة وصف له ابن الصقر بلعب الشطرنج ... فتقدم باحضاره، واجلس معه من يلاعبه، فأجاد ابن الصقر وغلب محاذيه دسْتاً ... ولعب الدست الثاني ...

أقول : و «الدست» في هذا هو ما يعبر عنه في لغة أهل اللعب في عصرنا بـ «الشوط» وهو «الداس» في لغة عامة العراقيين في عصرنا.

ونحن نجد في العامية البغدادية الشيء الكثير في لغة التنوخي هذا، ولم يفطن أهل المعجمات لشيء من هذا.

وجاء في الصفحة ١٤٦ قوله :

وان اليهودي في دار الرشيد موكّل به.

أقول : وقوله : «موكّل به» أي محجوز تحت الحراسة، وهو ما يشيع الان من لفظ «التحفظ» وقوله في الصفحة ١٤٨.

... فإذا كان الارتفاع ما يفي بالخَرْج ...

والارتفاع من المصطلح العباسي ويراد به «الدَخْل» وما يرد الى بيت المال، كما يراد بـ «الخَرْج» الانفاق، وهو من المولّد العباسي.

وجاء في الصفحة ٢١٨ قوله :

... نطرح في كُرُنْبية واحضرت طيفورية، وهو مفكّر فيمن يُطعمه منها ...

أقول : والكرنبيه طعام يتخذ من الكُرُنْب وهو اللّهانة في العراق.

والطيفورية طبق لعله منسوب إلى طيفور صانعه أو بائعه وجمع طيافر وطيافير ذكره دوزي في مستدركه على المعاجم ٨٤/٢.

وجاء في الصفحة ١٧٩ :

وسقياه قدحًا فيه «النبج».

أقول : «البنج» هو المخدّر، وهو الباقي في العامية المعاصرة في العراق وهو دخيل فارسي، أجتزئ بهذا القدر من الكلم الجديد الذي ظل حبيس هذه المظان، ولم يأبه به أهل اللغة. ثم آتي إلى كتاب «المستجاد من فعلات الاجواد»[1] لتنوخيّ آخر هو المحسّن بن علي فاقرأ فيه في الصفحة ٢٩ :

قال سليمان بن عبد الملك : علي بقناة فأتي بها فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة.

أقول : وعقد الولاية يتطلب القناة، وكان على اللغويين أن يشيروا الى هذه الدلالة في «القناة». وجاء أيضا في الصفحة ٣٥ قوله :

... لأن رسم اصحاب الدواوين صغارهم وكبارهم لا يقومون في الديوان لأحد ممن يدخل اليهم ...

أقول : «والرسم» يعني ما يتبع من الممارسات تقليدًا أو هو شيء مما يدعى الآن «بروتوكول».

وجاء في الصفحة ٥١ قوله :

... فقال لها الأشتر : ما فيك حيلة يا جيداء فتتعلل الليلة ...

أقول : والتعلّل هنا يعني السمر والأنس في الليل، وليس شيء من هذه الدلالة في عربية المعجمات، ولكنه معروف في «العربية العباسية»، التي ورثناها في عامية أهل بغداد في عصرنا.

ومثل «التعلل» هذا «التفرّج» بمعنى التنزه وهو من العربية العباسية التي ترد كثيرًا في كتبهم. ومن المفيد ان اقرأ قول المصنف في الصفحة ٦٢ :

---

(١) حققه محمد كرد علي من منشورات مجمع اللغة العربية في دمشق.

جاء في خبر طويل يتصل بالخليفة وهو قوله :

... واشهدكم اني قد زوّجت اختي فلانة إلى ابراهيم بن المهدي وأمهيتها عنه عشرة آلاف درهم.

أقول : وقوله : أمهيتها عنه عشرة الاف درهم أي جعلت مهرها كذا، وهو من «الماهية» أي القدر المعين من المال، وهذه الكلمة من الكلم العباسي المنحوت في قولهم «ماهو» بمعنى «الذي هو» فركّبه مزجا ونحتا فصار «الماهية» وصارت تعني في حقبة طويلة الحقيقة، وماهيةالشيءحقيقته وقد دلت على المعيّن من المبالغ المالية مرتبًا أو هبة أو فريضة أو وظيفة، ومازالت «الماهية» في شيءمن هذا في بلدان الشمالي الافريقي.

وجاء في الصفحة ٧٥ في خبر :

لما دخل المأمون الري وطلبني (وصاحب القول ابراهيم بن المهدي) أشدّ الطلب وجعل لمن أتى بي مئة ألف درهم.

أقول : قوله : «وجعل» من الجعالة التي هي ما يعطى مكافأة لمن يقوم بعمل كأنْ يرشد إلى معرفة صاحب جريمة أو نحو هذا.

وأختم هذه المختارات من هذا الكتاب بما ورد في ٨٥ :

حدّث سليمان بن وهب قال : لما تكبني الواثق قال لمحمد بن عبد الملك الزيات : عذّب سليمان وضيّق عليه وصادرْه.

أقول : و «المصادرة» معروفة في العصر العباسي التي ورثناها في عصرنا، ولكننا الآن نقول : صودرت أمواله في حين كان القدماء يكتفون بقولهم «صُودر» ومع «المصادرة» كان «التقويم» فالمصادر تقوّم أمواله أي تحسب قيمتها، وفي هذا ما يذكّرنا بالفعل قيّم في لغتنا المعاصرة أجتزئ بهذا القدر من الفوائد اللغوية التي لم يشر إلى شيء منها أصحاب المعجمات.

ونجد في كتاب «الوزراء»[1] لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابي فوائد جمّة. ومنها ما ورد في الصفحة ١٥ :

في تفصيل وجوه خرج المياومة مما شُرط فيه ما قرّره المعتضد بالله منه : أرزاق أصحاب النوبة من الرجالة ومن يرسمهم من البوابين ومن يجري مجراهم من ذلك البيضان من الجنّابيين والبصريين وأصحاب المصافّ بباب العامة.

---

(١) بتحقيق فرّاج نشر البابي الحلبي.

أقول : ولم يقدّم المحقق شرحا لهذه المسائل المفتقرة الى الشرح، فأصحاب المصاف هم الذين يحرسون والمصافّ جمع مصفّ في الأصل، وهو الموقع في الحرب، ولكنه هنا لا يعني ذلك بل يعني ان جندًا يلزمون صفوفهم حرسًا في باب العامّة.

وجاء في الكلام على «السودان» في النص قوله :

ولهم (أي السودان) وظيفة خبز.

والوظيفة قد ريُعيَّن من الخبز أو غيره من الطعام أو الشراب أو العلف للعاملين من جند وغيرهم.

وجاء في الصفحة السادسة عشرة قوله :

وكان لهم دوابُّ في الاصطبل فاسقطت علوفتها من مال الطّمع.

أقول : و «الطمع» يعني رزق الجند، وهذا ما لا نعرفه إلّا في هذه العربية العباسية.

وجاء في هذه الصفحة أيضا :

وفيهم (في الكلام على من يقوم بخدمة الخليفة المعتضد) حاجبه وخلفاء الحجّاب وعدّتهم خمسة وعشرون رجلًا خمسة ملازمون وعشرون نوبتيون ...

أقول : وقوله «نوبتيون» أي يتناوبون ...

وفي هذا الكتاب من العربية العباسية مما يدخل في باب «ألفاظ الحضارة» الشيء الكثير وعندي منه كتاب كامل جرّدته من تلك الفوائد، وفي هذا الذي اجتزأت به كفاية. وفي كتاب «رسوم دار الخلافة[1] لهلال بن المحسن الصابي نجد في الصفحة ١٤ في مقدمة المحقق : ومن محاسن أعماله (أي الخليفة) انه سدّ البثوق وعمل الجسر ببغداد وعمل له درابزينات ...

أقول والدرابزين من الدخيل الفارسي الذي لم يذكره الجو اليقي في «المعرّب» ولا «أدي شير» ولا غيرهما.

والدَّرْبزين والدرابزون قوائم مصفوفة تعمل من خشب أو حديد تحاط بها السلالم وغيرها ...

وجاء في الصفحة ٩ قول المؤلف :

... وكانت شحنة البلد برسم نازوك صاحب المعونة ...

---

(١) عني بتحقيقه ميخائيل عواد.

وكأن «الشحنة» هو حاكم البلد أي بغداد ...

وقد علّق المحقق على «الشحنة» وما تقابل في عصرنا، وأقول قد يكون من التعسف أن نقرّب بين هذه الالقاب المفيدة بحقبتها وبين ما هو شائع في عصرنا، وعلى هذا ليس لنا أن نقول ان الوزير في عهد السفاح والمنصور وحتى الرشيد هو الوزير الذي عرفناه في آخر الدولة العباسية كعصر المستنصر والناصر لدين الله وغيره في عهد الدويلات والامارات، والمماليك، وغيره في عصور الدولة العثمانية، فكيف نقرّب بينه وبين الوزير في عصرنا ؟ قد يكون في هذا اساءة الى اللغة والى التاريخ. وفي هذا الكتاب من أسماء السفن ما لا نجده في أي معجم كما جاء في الصفحة ١٢ من وصف دجلة حين ورود موكب عظيم الروم في دار المملكة المعزية البويهية :

وفي دجلة الشذّاءات والطيّارات والزبازب والشبّارات والزلالات والسميريّات بأفضل زينة.

أقول : وليس شيءمن هذا في المعجم القديم.

واكتفى بهذا القدر مما في هذا الكتاب الكثير الفوائد.

ثم آتي إلى كتاب «الجامع المختصر» لابن الساعي فأجد فيه من نظم الدولة العباسية فوائد سنية كان الأولى بالمعجم القديم ان يضم هذه العربية العباسية، ومن ذلك ما ورد في مقدمة المحقق في الكلام على «الدواوين» وما يدخل فيها من العاملين وكله كلم لا يعرفه الا المختص بدرس هذه المواد التاريخية.

ولنجتزي بشيءيسير من هذه الفوائد ومنها ما ورد في الصفحة ١١ قول المؤلف : وسئل الفقهاء عن الحال (أي قضية شاهد لم تصحّ شهادته) فأفتوا بوجوب عزله ... فعزله استاذ الدار العزيزة ... ورفع طرحته ووكل به في منزله ثم افرج عنه.

أقول : وقوله : «رفع طرحته» أي خلى عنه الطرحة السوداء، وهي سمة القضاة والشهود العدول والطرحة قطعة من قماش من صفاتها كيت وكيت يتقلدها القضاة.

وقوله : «وُكّل به» أي حجز وعليه حراسة ...

وجاء في الصفحة ١٥ قول المصنف :

... وعُوّل عليه (أي على أبي الحسن علي النجاب) التردد على سيواس لابتياع المماليك الاتراك والزلالي والمقادير ...

أقول : والزلالي جمع زليّة وهي الطنفسة أو الزربية أي «الزولية» بلغة العراقيين في عصرنا، وهي السجادة بلغة العرب عامة في عصرنا أيضا. والزلّية معرب «زولي» الفارسية.

وقد ذكر «الزولية» ياقوت في مادة «القطنية» وأما المقادير فصوابها «المحافير» وهي زلالي كانت تُسدّي في «محفور» وهو بلد بشط الروم.

وجاء في الصفحة ١٦ قوله :

... فقال : هذا المال لي ولك وللكاتب والمشرف والبراطيل ... وأبرطل بألف ... أقول : والبراطيل جمع برطيل وهو الرشوة، ومنه الفعل برْطل، وهذا ما ورثناه من هذه العربية المتأخرة من عصور الدولة العباسية.

وجاء في الصفحة ٨٨ قوله :

الجهة بنفشا ... وكان لها بر ومعروف وصدقة ...

والجهة في عربية هذه القرون من عمر الدولة العباسية تعني إما زوج الخليفة أو الأمير.

وجاء في الصفحة ٣٩ قوله :

الأمير المستنجدي ... صرف أوقاته في الشرب حيث لم يبق له شيء من البزْك وركبته الديون.

أقول : و «البزْك» تعني في هذه العصور الاثاث والمتاع.

وقد وردت في تاريخ الفخري ص ٤٠٨ (طبعة شالون).

وبعد فهذا قليل من كثير مما ورد في هذا الكتاب المفيد.

ثم أختم هذه البسطة في العربية العباسية التي افتقر اليها المعجم القديم والتي استقريتها من هذه الكتب العراقية بذكر ما بدا لي أن أقف على شيء منه في كتاب «الحوادث الجامعة» وهو كثير جدًا أجتزئ منه بقدر يسير على رسم النماذج ليس غير. وذهب (أي الوزير) إلى المارستان العضدي مع الخدم ومعهم عبد العزيز بن القبيطي، واعتبرت الحوائج التي في المخزن، فسأل صاحبُ المخزن خازن المارستان : كم تكفي هذه الحوائج مرضى المارستان ؟

أقول : وقوله : اعتبرت الحوائج أي نُظر فيها وقوّمت وقدّرت ...

وفي هذا الكتاب تجد من الحرف والمهن وأدواتها ومن المآكل والمشارب وأدوات الزينة وغيرها الشيء الكثير وكله مما لا نعرفه إلا في هذه المظان التي دونت أخبار القرون المتأخرة من عمر دولة بني العباس.

وجملة ما نقف عليه من هذه العربية يؤلف معجما برأسه ولم يقف على شيء من هذا «دوزي» في مستدركه، ولا «فانيان» في مستدركه، وليس شيء منه في أي مظنة أخرى.

ولو رجعنا إلى المظان الأخرى مما ألف في البلاد الاسلامية كمصر والشام لرأينا من ذلك شيئًا عجبًا ففي صبح الاعشى الشيء الكثير ومن ذلك ما ورد في كتاب ابن فضل الله العمري. ولنرجع ثانية إلى معجمنا القديم لنقول : إنه حوى أشياء قد نقف منها حيارى ليس لنا إلا ان نقول انها وضعت ورتبت ولم تكن من كلام العرب معتمدين على قول الخليل «هذا ما صنعه النحاريز» ذكره ابن فارس في «الصاحبي» والسيوطي في «المزهر». وهذا الموضوع يتمثل في الأبنية الغريبة التي حفل بها المعجم القديم، فول اتيت إليه لتفتش عن صفات الناقة أو نحو ذلك لرأيت مادة عجيبة في سعتها وعدم دقتها بحيث لا تخلص منها بشيء من فائدة.

وأنت تجد طائفة من الكلم تدل على «الصلب الشديد» ولا تجد لها أي شاهد، ولا تعلم من دلالتها شيئا أحيوان هو أم شجر أم شيء آخر ؟؟

غير أن المعجم القديم لا بدّ أن يبقى من آثاره في «المعجم الجديد» بسبب ان الكثير من العربية القديمة قد كتب له الحياة بثبوت ذلك في لغة التنزيل. وعل هذا كان العود الى المعجم القديم ضرورة مهمة، ندرسه ونهذبه ونستدرك عليه ما لم يكن فيه وليس شيئا ان نتعجل الى القول بالخطأ. ومن هنا نصير إلى معجم جديد يشتمل على عربية جديدة معاصرة. ولا بدلنا ان ننتقل إلى مسألة «**التصحيح اللغوي**» فنبدأ شيئا من «روض أنف»[1] غير أني لن أشق على الدارسين ولن آخذهم بـ «قل ولا تقل»[2].

درج أهل العلم من المتقدمين ومن تبعهم باحسان إلى يومنا هذا على تلمس «الاخطاء»[3] في الكلم والعبارة منذ ان كان الاصمعي وغيره من أهل الجد والعزم[4]. ومن خلفهم في القرون

---

(١) وجدت ان لا حرج علي من استعارة هذه العبارة التي وردت اسما للكتاب المشهور للسهيلي الاندلسي في «السيرة الشريفة» وقد أردت بـ «الروض الأنف» اني سأسلك طريقا آخر غير الذي سلكه أهل التصحيح اللغوي» وسيأتي ذلك في هذه الصفحات اليسيرة على انه نموذج لما يمكن ان يكون مفيدا في ضبط تاريخ العربية.

(٢) أول من استعمل عبارة «قل ولا تقل» استاذي الكبير الدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ وهو خير كتب في التصحيح اللغوي، وذلك بسبب ما اجتمع له من فوائد في درسه الجاد. وقد بدا له ان يجمع ما كان قد نشره في المجلات وما أملاه على طلابه في كتاب بهذا العنوان. وهو في هذا متبع ما ورد في الفرنسية : «dit et ne dit pas».

(٣) لقد قصدت الى ان اجمع «خطأ» على «اخطاء» لاشير الى ما درج عليه جمهرة من أهل التصحيح فقد ذهبوا الى ان «الاخطاء» جمعا لم ترد في العربية وحجتهم ان المعجم القديم لم يشر الى هذا الجمع. وكأنهم ظنوا ان المعجم القديم كامل تام لا نقص فيه ولو كان هذا ما استدرك المتقدمون على من سبقهم فكانت حواش، وكانت «تتمات» و «زيادات» و «تكملة». ثم لا أدري كيف يجمد أصحابنا هؤلاء ـ غفر الله لهم ـ فيزعمون هذا الزعم وهم لا يعرفون ان بناء «فعل» اسما أو مصدرا يجمع على افعال نحو : قلم واقلام، وعمل واعمال. واذا كنا قد وقفنا في العربية على «اسواء» جمع سوء، وانصراف «السوء» إلى المعنويات لا المحسوسات، وربما الى المجردات فليس غريبا ان يكون لنا «اخطاء» جمع «خطأ» وعدم وروده في المعجم القديم ليس بشيء البتة. وقد عمدوا إلى تخطئة من يجمع «غلط» على «اغلاط».

(٤) ان كتاب «اصلاح المنطق» لابن السكيت وكذلك كتاب الالفاظ له من هذا الباب.

التي تلت كالحريري في «درة الغواص» وغيره. ولم يقف دأبهم هذا بل واصلوا المسيرة فكان لنا من هؤلاء جمهرة من السوريين اللبنانيين في القرن الماضي وآخرون في هذا القرن في مصر والشام والعراق وجهات أخرى من بلاد المسلمين. وقد أغرى هذا العمل طائفة من غير أهل العلم على اتباع هذا السبيل مرددين ما ذكره اليازجي والكرملي ومصطفى جواد وغيرهم. فراح نقر في دور الاذاعات العربية يهرفون بما لا يعرفون تزيّدا وتزثة وجهلا، فيستعيرون أشتاتا مما ذكره اليازجي والكرملي وأسعد داغر ومصطفى جواد ويسيئون الاستعارة كما يسيئون الفهم لأن هؤلاء اللاحقين لم يملكوا من العلم الذي كان لأولائك الجلّة. ولنعد الى هذه الطائفة التي أحبت هذا الضرب من العلم اللغوي كاليازجي والكرملي ومصطفى جواد لنقول : ان هؤلاء على فضلهم وعلمهم النافع الغزير قد اقترفوا اشياء من حيث أرادوا تقويم اللغات المحلية في بلاد العرب كلغة الجرائد والمجلات والكتب. وليس غريبا أن يعرض الخطأ لهؤلاء فيما أرادوا ان يكون علمهم «تصحيحا» و «إصلاحا» وذلك لأن من العسير أن يحيط المرء بما قالته العرب وما لم تقله. والذي نعلمه ان «المطبوع» من المصادر قليل، وغير المطبوع من المخطوطات كثير، وأن الضائع الذي لم يصل إلينا شيء منه أكثر من ذلك[1] فكيف يتجرأ أحدنا فيزعم أن هذا مما قالته العرب، وذاك مما لم تقله ؟

ولا بدّ لي أن أعرض شيئا مفيدا يؤكد هذا الذي ذهبت إليه، وذاك أن جماعة من الاساتيذ قد كلفوا ان يضعوا كتابا فيما يسمى «النصوص الادبية» لطلبة السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية، وكان بين هؤلاء الاساتيذ استاذ جليل القدر قد احاط بكثير من شعب العلم القديم لغة وأدبا وتاريخا. وكان من نصيب هذا أن يراجع الكتاب، حتى إذا أتم أصحابه الكتاب عرضوه عليه فراح يصلح من لغته وعباراته بما اجتهد ان العربية تجيز كذا ولا تجيز أشياء أخرى اخذا بما هو من باب «قل ولا تقل».

لقد توقف هذا الاستاذ اللغوي الجليل في قول مصنّفي الكتاب في «المقدمة» : فليتدبّر الطالب مادة الكتاب وينظر في عبارتها ...».

قلت : لقد توقف في استعمال المؤلفين للفعل «تدبّر» وكأنه حسبها من الخطأ في الاستعمال، حتى إذا سئل عن ذلك أجاب : ان «التدبُّر» هو النظر في الأدبار، فردّ عليه احد المؤلفين قائلا : ان الفعل «تدبّر» قد ورد في لغة التنزيل العزيز «أفلا يتدبرون القرآن» فلم يكن من هذا «المصحح» إلا الاذعان وإلا الشعور بما هو فيه من نقص في الادوات. ولعل هذا خير دليل على ان الذهاب هذا المذهب بادعاء ان هذا قالته العرب، وذاك خطأ لم يجر على ألسنتهم مسلك وعر ولا بدّ ان يسلكه الانسان حذرا متوقيا مما يعرض له فيه من الزلل، مزودا بما يتيسر له أن يتزود به من الأدوات.

---

(١) الذي اثر عن أبي عمرو بن العلاء انه قال : لم يأتكم من كلام العرب الا أقله ولو جاءكم منه لجاءكم علم كثير.

أقول : إذا كان قد فات هذا المصحح وغيره ممن هم على شاكلته، الوقوف التام عمّا في كتاب الله، فكيف يجرؤ أحدنا فيزعم ان هذا لم تقله العرب، ويملأ ماضغيه زهوا فيشرع في نهج يفرغه في مصنفات وكتب تصحيحًا وتقويمًا في الكلم والأساليب ؟؟

وأذكر أن أحد شيوخي الأعلام الذي أخذت عنه اللغة قد ذكر يومًا ان «العادي» في استعمال المعربين خطأ شائع، فسألته وكيف ذلك فقال : لان العاديّ هو المنسوب إلى «عاد» من الأمم القديمة ويقال للشيء القديم «عاديّ» ومنه بئر عاديّة أي لم تحفر.

قلت : هذا صحيح، ولكن كيف أنسب إلى «العادة» كما أنسب الى البصرة وغيرها ألا نقول بصريّ ؟ فنقول مثل ذلك في النسبة إلى «عادة» عاديّ. كان اعترافي هذا مفيدا للاستاذ وكأني نكّرته بشيء غريب، ولعله تعجّب من نفسه كيف يذهب به الظن إلى هذا ودونه المشهور القريب ؟

أقول : ان منهج أهل التصحيح أغراهم فمضوا فيه حتى دفعهم الى تخيل الخطأ وتصوره والتشبث بالضعيف النادر القليل واتخاذه مادة يغنون بها كتبهم. وربّما انساقوا في هذا المنهج فحسبوا قرزمة أعجمية من الخطأ الشائع وربّما عدّوا أغاليط الشداة من هذا الباب. ولم لا يكون هذا وقد علمنا ان النحاة المتأخرين صاروا يتشبثون بالشاهد الضعيف والكلام المصنوع بل الذي كذب فيه أصحابه ليقولوا فيه شيئا ويقيموا عليه بنيانا متهافتًا لا نجد له نظائر في الفصيح المليح.

لقد فات هؤلاء ان الكثير مما يُشدّد النكير عليه ينبغي ان ينظر إليه على أنه لغة جديدة أو عربية معاصرة وليس خطأ. ان القول بالخطأ يأخذ علينا الأقطار ولا ييسر علينا ان نواجه الجديد الذي تفرضه علينا حضارة جديدة وعصر جديد.

ان عامة ما يكتب في الصحف في حيز الاخبار السياسية والتعليقات شيء من هذا الجديد فكيف يسوغ لنا أن نحمله على الخطأ. وقد يقال اذن ما الخطأ ؟ وعندي ان الاثم الكبير هو الفاحش من الخطأ وأريد به قبل كل شيء الخطأ النحوي والخطأ في الأبنية، وأما ما عدا ذلك فهو «اللمم» وأن تعرض هذه «الصغائر» مما دعوته «اللمم» في كلام المعربين لهو شيء غير الخطأ النحوي الذي ينبغي اجتنابه لتحفظ للغة ما درجت عليه من أصول. وأما ما عدا هذا فينبغي ان يصار فيه الى القول بجديد اللغة، الا ترى ان من غير العلم ان يقال مثلا : ان الفعل «استهتر» من الخطأ بحجة ان «الاستهتار» في الفصيح القديم هو الولوع والعكوف على الشيء وهو في الحيّز القديم ليس خاصًا بالشر فكان يقال : استُهتِرَ الخليفة هارون بالحج بمعنى انه أولع به وأكثر منه، وجاء في الحديث : «ان لله ملائكةً مُستهترين به» كما كان يقال : «استهتر أبو نواس بالخمر بمعنى أحبّها ولزمها وتغنّى بها».

ثم جاء عصرنا فصرف الفعل «استَهتَر» الى الشر فصار الفعل بهذا المعنى وما يتصل به في لغة المعربين فيقال : «فلان مُستَهتِر» أي من اجتمع فيه جملة خلال كلّهن شر كشربه الخمر والتزامه بما لا تبيحه الشرائع والقوانين، وما لا يتقبله الناس في سلوكهم وسيرتهم. وهذا كله جديد، والفعل بهذه الخصوصية جديد، وآية الجدّة فيه انه تحول من البناء للمجهول الى البناء للمعلوم في العربية المعاصرة.

وبعد فليس لي أن أقول : انه من الخطأ. وقد يكون من الخير أن أقف على جديد آخر أو مولّد جديد وهو الفعل «صوّب» لأقول : إنه ورد في أساليب المتقدمين ومن تبعهم بمعنى : حكم على الشيءانه صواب فيقال : صوبته فيما ذهب إليه مثلاً. على ان الفعل قد استجد فيه جديد في الدلالة أبعده عما كان له فيقال مثلا : صوّبت خطأه بمعنى : صحّحته : ولذلك يقال في جداول تصحيح الخطأ الطباعي في نهايات الكتب مثلا : فهرس التصويبات.

أقول : ليس من العلم ان نقول : ان التصويبات بهذا المعنى في العربية المعاصرة من الخطأ، ذلك أني أنظر إلى أن المعربين في عصرنا قد ذهبوا في هذه الدلالة من نظرهم إلى المصدر وهو الصواب فأخذوا الفعل منه كما اخذوا الفعل من الصحّة فقالوا «صحح» بمعنى أصلح الخطأ. لقد لجأ المعاصرون الى هذا التوليد، وطريقتهم سليمة دون ان يعلموا بالدلالة القديمة للفعل. ومن هنا فحمل التصويبات على أنها من العربية المعاصرة خير من حملها على الخطأ والتجاوز. ومثل هذا كثير من الكلم في العربية المعاصرة مما جنح المعربون عن مدلوله الذي كان له قبل قرون عدة.

أقول : ليس هذا بدعا وليس لنا ان نحمله على الخطأ، وهو شيءيعرض لكثير من اللغات ومن أجل هذا كان علينا ان نفزع الى القول بتطور الدلالة ولا نقول انه خطأ. وسأبسط بين يدي القارئ نماذج لغوية استقريتها فيما ينشر في صحف عصرنا هنا وهناك، وسيكون في بسطها مادة لمن أراد ان ينظر في هذه العربية الجديدة.

**١ ـ المجاملة :**

وهي كلمة شائعة في العربية المعاصرة، وقد شاعت حتى كانت من اللغة المحكية الدارجة، وهي في أصل دلالتها معروفة ويراد بها إحسان المعاملة، وهي «الاجمال» أيضا، قال المتنبي :

إنّا لفي زمن ترك القبيح به  من أكثر الناس إحسان وإجمال

وهذه «المجاملة» وهي تعني إحسان المعاملة، قد جُنح بها في استعمال المعاصرين لتكون شيئا يقابل «الجد» أو «الصدق» أو «الحقيقة». ومن أجل ذلك يقول بعضهم لبعض : كلامي معك حقيقة من غير مجاملة، أو قصدي الحقيقة لا المجاملة. وقولهم هذا يشعر ان المعرب يعقد مقابلة بين الحقيقة والمجاملة وكأن كلا منهما مضادّ للآخر.

ومَردّ هذا الشيوع وذلك ان الكلمة قد ترزأ بالشيوع وفي ذلك ما فيه من أنها يحاد بها عن أصلها في الاستعمال العام. وقد يقال : ان هذا الانزلاق يحدث حين تتحول الكلمة إلى «عامية» والجواب عن هذا أن اللغة المعاصرة لغة حواضر، وفي هذه تقرب الأنماط اللغوية بعضها من بعض فيكون عسيرًا علينا ان نفصل في حقيقة انتساب الكلمة. ألا ترى أن العامة مثلًا في جهات من بلاد العرب حملوا «الضرورة» على الضرر، وهم يقولون مثلا : في هذا الأمر ضرورة وليس نفع. هذا في العامية الدارجة، وإن كانت الفصيحة لا تنأى عن هذا، ووجه الأمر فيها أن «الضرورة» اضطرار المرء في عمل أو سلوك أو قول، وفي ذلك كله أن يكون الشيء عليه لا له، وأنه الجانب السلبي المنفعل،والشيءنفسه الذي يضطرنا أو قل يجمل الضرر علينا هو الجانب الايجابي.

وهكذا لمحت الذهنية العامية ان «الضرورة» ضير وضرر، في حين لزم المعربون بالفصيحة شيئًا غير هذا فكان عندهم الضرورة والضروريّ، وهذا الأخير يكاد يكون الواجب اللازم.

**٢ ـ تحريك :**

الكلمة مصدر الفعل «حرّك» بتشديد الراء، وحرّك الشيءجعله يتحرّك والدلالة معروفة مشهورة. غير أننا نقرأ أحيانًا في هذه الحياة الجديدة مسألة «تحريك الأسعار» والوزارة المختصة بالأمر تنظر في مسألة «تحريك الأسعار» ولايراد بـ «التحريك» هذا جعل الاسعار تتحرك، كأن تُخفض مثلًا لمصلحة المستهلك، ولكن المراد هو زيادة الأسعار ورفعها.

قد تقول : ولِمَ جُنح بالتحريك هذا الى الزيادة خاصة بل قصرت عليها، هل كان ذلك إرادة التعمية أو أن هذا الرفع لم يكن إلى مستوى عال بل زيادة طفيفة، أو ان الذهاب إلى هذه الكلمة لا يهيج جمهرة الناس المستهلكين أو الفقراء خاصة فيثير سخطهم ويكون من ذلك ما يكون. لعله جملة هذه الأمور حدت ذوي الشأن المسؤولين عن رفع الأسعار إلى أن يفعلوا شيئًا يتقون به ما يتقون فعمدوا إلى إحداث معنى جديد فكان «التحريك».

**٣ ـ التحفّظ :**

التحفظ مصدر كالحفظ، والزيادة في الكلمة من أجل إحداث خصوصية في دلالة الحفظ. غير أن المعربين جنحوا بالكلمة الى شيء آخر، فهم يقولون : ان لي في هذه المسألة «تحفّظات» جمع «تحفُّظ» ويريد القائل أن يقول : إنه يوافق على الأمر ولكنه يحترز في الموافقة فلا تتم عنده إلا إذا كانت على نحو ما أو كان لهاشيءخاص لا بدّ من أن يكون. وكأن «التحفُّظ» إحتراز واحتراس، وليس لهذا الجديد في الكلمة من وجود قديم، أو قل ليس في الكلمة في حواشي استعمالها ما يفيد هذا أو ما يومئ إليه.

ثم جدّ في الكلمة جديد آخر نجده في صحف بعض البلدان من بلاد العرب في عصرنا نقرأ فيها، إن دوائر الأمن تحفظت على السيد فلان لموقعه في المؤامرة أو الجريمة. وليس «التحفُّظ» هذا إلا ضربا من السجن. ولا ندري لمَ عُدل عن جمهرة من الألفاظ التي تعني الحجز والسجن ونحوًا من ذلك إلى هذه الكلمة التي مازالت تحمل وسم الحفظ !!

**٤ ـ الشعبي والشعبية :**

هذه صفة جديدة باتباع طريقة النسبة كالبغداديّ والفلسطيني ونحو ذلك، و «الشعبي» هو المنسوب إلى «الشعوب» كأن يقال : مطلب شعبيّ، ومقهى شعبي، ومطعم شعبي ونحو ذلك. وكأن الوصف بهذه الصفة ذو دلالة خاصة أي أن الشيء يتصل بجمهرة الناس أو قل يتصل بالكادحين منهم في بعض البلاد. وكأن هذه الصفة أريد بها في بلدان تؤمن بمذاهب اجتماعية خاصة قائمة على نظام اشتراكي ما يُراد بالكلمة الأعجمية بروليتاريا (Prolitariat) فيقال : الجماهير الشعبية أو نحو من هذا.

ولكن «الشعبي» و «الشعبية» في حيزّ الاستعمال اكتسبتا شيئا حمل الضيم عليهما وصارتا أحيانا يوصف بهما الشيء الرخيص المبتذل، فإذا قيل مثلاً «الاحذية الشعبية» فهي الاحذية الرخيصة الرديئة، وإذا وجدت مطعمًا أو مقهى وصف بهذه الصفة انصرف ذهنك إلى أنه شيء يفتقر للعناية والنظافة وصفات أخرى، ومثل هذا دلالة «البلدي» في لغة المصريين وذلك لأن البلد عندهم يعني القرية وشتان بين القرى والحواضر.

وعلى هذا جنح الاستعمال بالكلمة إلى غير ما أريد لها. وربّما كان من المفيد أن أشير إلى أن أحدًا من رؤساء الدول العربية قد استقبل في بلده ملكًا عربيًا منذ ما يقرب من ثلاثين سنة. وقد دفعته سماحة فيه إلى أن يصف الملك المحتفى به بـ «الملك الشعبي» ظنا منه أن هذا تشريف وإعظام، فابتأس الملك المحتفى به أن يوصف بهذه الصفة.

فأنت ترى ان ظلال الكلمة تختلف بين قوم وقوم وبيئة وأخرى وبين رجل وآخر.

ولشيوع هذا الوصف نشأت كلمة «الشعبية» على طريقة المصدر الصناعي نحو الاشتراكية والشيوعية والوطنية والقومية وغيرها. والمراد بـ «الشعبية» جملة الصفات التي تجتمع في ما هو «شعبي».

**٥ ـ العائلة والعيال :**

العائلة في العربية المعاصرة هي الأسرة. وعيال الرجل زوجه وولده ومن تكفّل بهم كأمه وأبيه واخوانه وأخواته. وأعال الرجل : أي كان ذا عيال.

ولما كان الرجل العائل يتكلف بإعالة أسرته فهو من ذلك في مشقة وعناء، ومن هنا كان في أشتات هذه المادة دلالة الحاجة والفقر والمشقة فقالوا : أعال بمعنى افتقر، قال تعالى : «ووجدك عائلا فأغنى» ٨ سورة الضحى.

ولم يفطن الذين أحدثوا كلمة «العائلة» ان الكلمة يومئ الى الفقر، بل صرفوها عن ذلك للدلالة على الأسرة بعيدا عن معنى الافتقار.

**٦ ـ التقشف :**

مصدر الفعل «تقشّف» والمتقشّف هو المتزهّد المتبلّغ بقوته ومرقّعته. والقشف خشونة العيش، والقشف مثل «فرح» هو الرث الهيئة القذر ...

وقد استعمل «التقشف» في عصرنا فتوسع في استعماله ارادة حالة خاصة من الزهد في الانفاق الكثير والقصد في العيش فقالوا : اتبعت الحكومة سياسة التقشّف، بمعنى نقصت من انفاقها وأقلّت مما تستجليه من البضائع من بلاد أجنبية، وتخلت عن الصرف على وجوه من الترف والبسطة. ثم قالوا : ميزانية أو موازنة متقشّفة وهي الموازنة المرسومة للضروري من وجوه الانفاق.

وأنت ترى ان «التقشف» تحول من دلالته القديمة الى الشيء من المصطلح الفني الجديد الذي يدخل في شعب العلم الجديد. ومثل هذا كثير. الا ترى ان «الاقتصاد» هو ضرب من العدل، واقتصد في سعيه بمعنى جعل سعيه قصدا، ومن هنا صار للاقتصاد معنى التوفير والادخار، وليس هو بالضرورة توفيرا وادخارا. ثم انصرف الى أكثر من ذلك فصار دالا على علم جديد له حدوده وموادّه الخاصة.

**٧ ـ التقاوى (كذا) :**

كلمة نسمعها كثيرا في مقامات خاصة كأن يقال : وزّعت وزارة الزراعة تقاوي على المزارعين. ولا يعلم الذين يديرون هذه الكلمة في كتاباتهم أتقاوى هي أم تقاوي ؟ فهم يستعملونها تارة بالألف فيقولون : تقاوى نظير شكاوى، وتارة أخرى تقاوي بالياء.

و «التقاوي» هذه هي البذور التي يستوردها المزارعون من بلدان أجنبية فيبذرونها ليضمنوا جودة الحاصل.

من أين جاءت «التقاوى» هي من مادة «تقوية» وقد سميت بذلك لأن الحكومات تستوردها إعانة للمزارعين و «تقوية» لهم. ثم ابتعدت دلالة «القوّة» من الكلمة لتنصرف الى البذور نفسها التي يقصد منها عند توزيعها «تقوية» الزرع.

وكأن هذه الكلمة قد استعملها الاتراك العثمانيون وورثناها نحن منهم وجهلنا أمرها وكيف وصلت إلينا.

وهي عندي بالياء المثنّاة التحتية فكأنها جمع «تقوية».

قلت ان الاتراك العثمانيين قد ولّدوها، وكثيرًا ما ولّد العثمانيون مصطلحات علمية بنوها على أصول عربية. ان كثيرًا من مصطلحات الجبر والحساب قد ولّده العثمانيون إفادةً من المواد العربية ثم درج عليها العرب، ومازال شيءمنها باقيًا في كتبنا ودوائرنا.

وأذكر أن الذين عاشوا في تلك الحقبة العثمانية من العراقيين كانوا يستعملون كلمة «التقاويت» بمعنى الراتب التقاعدي، وهو شيء من هذه «التقاوي» التي نعرض لها في هذا الموجز اللغوي التأريخي.

**٨ ـ امتياز وممتاز :**

وفي العربية «امتاز الشيء» أي كان فيه ما يميزه، وامتاز أيضًا بمعنى انفصل وانعزل عن غيره. وفي ذلك ميزة أيضًا. غير أننا نقول : ان الطالب نجح بدرجة «امتياز»، ونريد بذلك ان نجاحه نجاحًا فائقًا تميز به على أقرانه ونظرائه. ومثل هذا يقال : إن الشركة الفلانية حصلت على «امتياز» إنتاج بضاعة أي أنها حصلت من الشركة المنتجة الأم على حق انتاجها في بلد آخر. كل هذا جديد غير أنه يقوم على شيء يلمح إلى الاصل في دلالة «الامتياز».

وأذكر اني كنت في احدى السنين في احتفال اقيم لتخريج دفعة من طلاب جامعة بغداد، وكان إلى جانبي استاذي الدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ وكنا نستمع إلى الخرّيج الأول يلقي كلمة الخرّيجين فكنا نشقى بما سمعناه من كلمته التي زخرت باللحن الفاحش، فقلت لاستاذي ـ رحمه الله ـ : أتسمع اللحن الفاحش في كلمة الخريج الأول الحائز على درجة «الامتياز» فكيف يكون هذا الامتياز.

فأجاب من فوره : لا تعجب من ذلك فذاك على حد قوله تعالى : «وامتازوا اليومَ أيها المجرمون».

ثم نعود إلى «الممتاز» وهو صفة تنصرف الى الحسن والجودة فيقال : بضاعة ممتازة بمعنى جيدة وانها صنف عال بين البضائع ...

أقول : وانصراف «الممتاز» إلى الحَسَن أو الجيّد أو الفائق تضييق لعمومية الدلالة القديمة ذلك ان «الممتاز» في فصيح العربية يكون حسنًا كما يكون غير حَسَن.

### ٩ ـ مؤونة :

و «المؤونة» الزاد والمتاع، وما يتزود به المرء في بيته من حاجات. والتزود بـ «المؤونة»شيءيتكلف له المرء فيشقى وينصب، ويلقى ما يلقى في سبيله من مشقة ومن هنا احتملت «المؤونة» معنى الجهد والمشقة والعناء. ومن أجل ذلك يقال : كفانا هذا مؤونة السعي والبحث، أي أنه كفانا ما نشقى به بسبب السعي والبحث.

وانصراف «المؤونة» الى هذا عن طريق العلاقة بين السبب والمسبَّبشيءدرجت عليه العربية ومنه كان فيها حشد من الكلم انصرف الى معنى بعينه وأصله علاقة قائمة كالتي عرفناها في المؤونة، وقد نسي الأصل القديم وشاع المعنى الذي جاءت به العلاقة بين الأصل وما صير إليه، ألا ترى ان الاصل في «المسافة» مثلاً من «السَّوف» وهو أن المسافر والذاهب في رحلة كان يستاف الأرض أي يشمها ليدرك من بعدها ما يدرك ثم نسيت هذه الحقيقة فحملت «المسافة» على البعد المكاني، ومثل هذا كثير.

### ١٠ ـ هدوء حذر :

هذا ما نسمعه كل يوم في لغة الاخبار السياسية من دور الاذاعة العربية. ووصف «الهدوء» بـ «الحذر» هو الجديد، والمراد بالهدوء الحذر هو الهدوء الذي يُحذَر منه أو لا يطمأن إليه، أي أنه هدوء مؤقت. ان «الحذر» من النعوت الخاصة بالعاقل، ولكن العربية الحديثة أباحت ان تكون طائفة من النعوت مما يتصال بالعاقل يوصف بها غير العاقل كأن يقال : المشاريع الشجاعة، والمبادرة الجريئة، والميزانية السمحة، وغير ذلك، ولا نعدم أن نجد في العربية ما يعين على هذه اللغة الجديدة.

وقد يكون من المفيد أن نقول : ان هذا الجديد قد دعت إليه الحاجة الى ترجمة اللغات الأجنبية ولا سيما الانكليزية والفرنسية، اذ أن في هاتين اللغتين وغيرهما من اللغات الغربية شيئا من هذا فإذا قلنا «المشروع الشجاع» وجدنا أن هذه الصفة الجديدة في اطلاقها على غير العاقل تنتقل إلينا من نظيرتها في اللغة الانكليزية أو الفرنسية. لقد كان لنا في العربية المعاصرة طائفة من هذا الجديد الذي عرفته لغتنا بسبب من نقل المترجمين لأساليب خاصة في اللغات الغربية.

ولعل الدارس محتاج إلى أن ينظر في القدر الكبير الذي حفلت به العربية المعاصرة من طرائق التعبير. إن شيئًا من هذا الجديد قد عرفته العربية منذ عقود عدة من السنين حتى غدا كأنه شيء من بنية هذه اللغة لسيرورته على الألسنة. وقد يكون من العسير أن يتبين القارئ أن قولنا : «الاكثرية الساحقة تؤمن بهذا» من الدخيل الوافد في أساليب العربية المعاصرة. وان اصل العبارة من اللغة الفرنسية[١].

---

(١) كنت قد اشرت في (معجم صغير) الى هذه النماذج التي دخلت العربية المعاصرة عن طريق الترجمة من اللغتين الانكليزية والفرنسية.

وربما تردّد القارئ اذا ما قيل له «ان فلانًا يصطاد في الماء العكر» عبارة جديدة أصلها عبارة فرنسية. أقول : ربّما تردّد القارئ في ان تكون هذه العبارة غير عربية النجار لشيوعها وسيرورتها، وان القاريء والسامع قد ألف هذا الجديد.

**١١ ـ التراث :**

التراث اسم لمصدر الفعل «وَرِثَ» جاء في لغة التنزيل العزيز «وتأكلون التراثَ اكلًا لمّا» ١٩ سورة الفجر. وهذا الاسم من «وَرِثَ» والتاء فيه على البدل من الواو، والواو في أول الاسم اذا كانت مضمومة يستبدل بها تاء، وقد نجد في جملة من الكلم نحو : «تُكْوَة» والاصل «وُكْوَة» و «تُجاه» والاصل «وُجاه» و «تُكْلان» والأصل «وُكْلان» وغيرها.

ولنعد الى التراث في لغة عصرنا وأدبه لنقول : ان هذه الكلمة اصابت قدرًا من السيرورة والحظوة لدى المعربين، فقد شاعت واحتفل بها، وتحولت في حقيقتها من العموم الى الخصوص فاتّسمت بخصوصية نتبينها من انصراف الكلمة الى الحَسَن مما ورثناه، وإلى الجانب المشرق مما ورثناه من نماذج حضارية. انك لا ترى في «التراث» فيما يكتب ويقال الّا الصور الحضارية المشرقة، ومن هنا اصبح ما لم يكن مشرقًا من المواد القديمة شيئًا مرفوضًا وكأنّه بهذا النظر ليس من «التراث».

ولا أريد أن أعالج أو أناقش فساد هذا النظر. لأن ذلك ليس من همي في هذا الدرس اللغوي الذي أصف فيه ما حصل لنا وما كان من أمر هذه العربية المعاصرة.

**١٢ ـ المشكلات الشرق أوسطية :**

لقد ارتكب المعاصرون في إعرابهم أثقل الآثام في حق لغة سمحة تبتغي الخفة ابتغاءً فتنفر من الثقل وتتجنب العثرات. وسأستوفي في مظاهر الخفة مسائل كثيرة لأقرر أن ما يرتكب في اللغة في عصرنا لهو شيء ينمّ على جهل المعربين.

أقول : إن النسبة في العربية يصار إليها لجعل ما لا يصلح أن يكون وصفًا صالحًا ان يأتي وصفًا ألا ترى ان : العلم والنظام وبغداد ومصر والعراق كله لا يصلح أن يأتي نعتا ولكنك حين تأتي بها مختومة بالياء المشددة للنسبة صلحت نعوتًا فتقول : الجانب العلميّ، والحد النظاميّ، وفلان البغداديّ أو المصريّ أو العراقيّ وكلهن نعوت للمنعوت قبلهن. والنسبة في العربية تعني الصفة أو العلاقة فيها بين الصفة والموصوف علاقة انتساب وعلاقة تشبيه بصفة خاصة فإذا قيل مثلًا «الأشعة الذهبية» فهي ليست ذهبًا وانما لونها كلون الذهب، وإذا قيل «منديل حريري» فانه يعني أنه يشبه الحرير في ملمسه وخيوطه فان كان من حرير خالص قيل : منديل حرير ولهذا كان الحق ان يقال : سكة حديد وهي أحسن وأدلّ من «السكة الحديدية».

قال تعالى : «يُحَلَّونَ فيها من أساورَ من ذهب» ٣١ سورة الكهف.
«فلولا أُلقِيَ عليه أسورةٌ من ذهب» ٥٣ سورة الزخرف.
«يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب» ٧١ سورة الزخرف.
«ويطاف عليهم بآنيةٍ من فضّةٍ ...» ١٥ سورة الانسان.
«وحُلّوا أساورَ من فضّة ...» ٢١ سورة الانسان.

فأنت ترى ان الحلية «الأساور» أو «الأسورة»، وان «الصحاف» كلها مصنوعة من ذهب أو فضة فلم يعبّر عن ذلك بالنسبة، بل عبّر عن ذلك بالاضافة على حقيقتها باثبات حرف الجر «من» ولو كان ذلك بالنسبة لما كانت الحلية أو الصحاف من معدن الذهب أو معدن الفضة.

قلت : ان العربية لغة سمحة تتحرّى الخفة، وبسبب من ذلك قالوا : الرازيّ في النسبة إلى «الري» وهي مدينة من بلاد الديلم بين قومس والجبال، وليس الرزاي إلا مخلصًا فزعوا إليه لأنهم قالوا ان الأصل البعيد للكلمة في اللغة الفارسية القديمة يشتمل على الزاي وقالوا «مَروزي» في النسبة إلى «مرو» من مدن خراسان.

وقالوا : «الفارقي» في النسبة إلى «ميّافارقين» من أشهر مدن دياربكر وإليها نسب غير واحد من مشاهير الرجال، ومنهم أبو البركات يحيى بن عبد الرحمن بن حبيش الفارقي من المحدّثين، المتوفي سنة ٦٢٠ هـ.

وقالوا : «القالي» والنسبة إلى «قاليقلا» من دياربكر وإليها نسب أبو علي اسماعيل بن القاسم اللغوي المعروف، صاحب «الأمالي» المتوفي سنة ٣٥٦ هـ.

وقالوا : «الديار بكري»، ولم يتخففوا في النسبة الى الجزء منها الأول أو الثاني لأمن اللبس فلو قالوا الدياري أو «البكري» لدل على قوم آخرين.

وقالوا : «الدير عاقولي» والنسبة إلى «دير العاقول»، بليدة قرب بغداد، وإليها نسب جمهرة من أهل العلم ومنهم المؤتمن احمد بن علي بن الحسين أبو نصر الربعي الدير عاقولي المتوفي سنة ٥٠٧ هـ، ترجم له الذهبي في «التذكرة» ١٢٤٦/٤ ـ ١٢٤٨.

وقالوا أيضا «العاقولي» في النسبة إلى «دير العاقول» نفسها وإليها نسب أبو البركات طلحة بن احمد بن طلحة ... العاقولي من المحدّثين المتوفي سنة ٥١٠ هـ.

وقد جروا في هذه النسبة الأخيرة على طبع في العربية وهو التماس الخفة، ألا تراهم قالوا : فلسطية للخمر المنسوبة إلى فلسطين، كما قالوا : فلسطيني في جمهرة من الرجال.

وقالوا : «النصيبي» في النسبة إلى «نصيبين» من مدن الجزيرة، وفي هذه النسبة يبدو التماس الخفة واضحًا فقد اجتزأوا من الاسم ببعضه وطرحوا شيئًا منه اجتنابا للطول المفرط. والنصيبي ميمون بن الاصبغ بن الفرات المحدث المتوفي سنة ٢٥٦ هـ.

وقالوا : «السلامي» نسبة إلى «مدينة السلام» وهي مدينة الخليفة المنصور العباسي وبها عرف الشاعر السلامي من شعراء بغداد ترجم له العماد في «الخريدة».

وقالوا : «الدار قطني» والنسبة إلى «دار القطن» من محالّ بغداد القديمة في الجانب الغربيّ، وبهذه النسبة عُرف الامام أبو الحسن علي بن عم بن احمد ... الدار قطني الحافظ، صاحب السنن المتوفي سنة ٣١٥ هـ.

وقالوا : «الحصنكفيّ» والنسبة إلى «حصن كيفا» قرب مدينة حلب، وبها عرف يحيى بن سلامة الخطيب بميّافارقين المتوفي سنة ٥٥١ هـ.

ونعود الى المشكلات «الشرق أوسطية» فلا نراها عجبًا أو خروجًا على سنن العربية، وكأن من المعاصرين من استثقلها فعمد الى النحت فقال : «الشرقسطية» وما اظن هذا حسنًا لما فيها من الاغماض، وفي الذي قدّمت كفاية في اثبات صحة النسبة.

أقول : إذا كنا نحسب أننا تجاوزنا على هذه اللغة السمحة المعطاء فعذيرنا اننا وجدنا الأوائل جروا منها على ما نجري فيه اليوم، ولكن العلم بالعربية يدفعنا الى أن نعدل عن النسبة إذا كان فيهاشيءينال من صفاء هذه اللغة، ألا ترى أن أسلوب الاضافة يؤدّي ما تؤدّيه النسبة، بل ان ذلك أفضل من النسبة في حالات خاصة، فلو قلنا مثلاً «مشكلات التنمية» لكان ذلك أحسن من قولنا : «المشكلات التنموية» التي يستعملها أهل الاختصاص في عصرنا. ولو قلنا «حلول التصفية» لكان ذلك أحسن من قولنا «الحلول التصفوية». كل هذا نقرؤه في الصحف فنقشعر أول الأمر ثم نعتاد الشيء ويصبح كأنه من العربية.

وعلى هذا ألم يكن من الأحسن ان نقول : «مشكلات الشرق الأوسط» بدلاً من «المشكلات الشرق أوسطية» ؟

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE LA RECHERCHE ET DES ETUDES ARABES
مكتب اتحاد الجامعات العربية